بقلم الوجدان

العيد الأخرس

الأصيل يؤذن بنهاية يوم من أيام العمر ، الشمس انحنت على الأفق لتودع بأسى ووقار الحكماء أول أيام العيـــد الأخرس ، العيد الثكيل ، مسدلةً الستارة عن مجزرة جديدة بمدينة الإسلام .

السكون يخيم على الجميع ، المدينة تلبس الحداد ، الدموع اختنقت بالمحاجر ، الجميع واجم ، كأنما على رؤوسهم الطير ، لا صوت إلاّ صوت القرآن يتعالى من كل منـــزل ، وسطح ، لا أحد ينبس ببنت شفاه لكنك تقرأ الكـــثير الكثير على تلك التقاسيم المرتسمة على الجباه ، معالم الغضب ، تقرأ مرارة الألم ، عمـــق الأســـى علـــى الـــشفاه الصفراء .. وبالعيون سجالاً ينطق الموت ، يرتسم الحقد ألواناً ، عيوناً تريد أن تفجر كل شيء ، أن تهدر كالبركـــان تمزق أشلاء الظلم ، آثار البغي والعدوان ، الكثير الكثير بتلك العيون المختنقة بالدم كل ذلك باليوم الأول من أيـــام العيد السعيد ، إنّ ما أكتبه ليس من وحي خيال مبدع أو شاعر مجنون ، إن هو إلاّ أول أيام العيد بسوريا لهذا العام ، أكتب والقلم يقطر دماً ، أكتب من وحي الأرقام والأحداث ، من وحي ما يترامى أمام ناظري وليـــس مـــن إلهـــام قصصي فهل من ضمير يسمع أو يرى ، أعلم أن المشهد أصعب من أن ينظر إليه قلب إنسان وألمّ من أن تسمعه آذان بشر لكن الحقيقة هي تلك الأجداث الملطخة بالدم المترامية أمامي والتي تعيش في ذاتي وما برحت تستـــصرخ كـــل ضمير ، سلبت الكرى من الجفون ، تلك الأجساد الطاهر التي تروي الأرض بدمائها لكـــن .. لكـــن إن يـــشاء الله فالحصاد قريب ﴿ ... **أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤]

لا تسألني ما الخبر ، لا شك أن الأجساد المنتشرة هناك تخبرك من غير ما شفاهٍ تنطق ، الدماء الزكية الزاهية دماء الصائمين الشهداء تكفيك عن الجواب

الأثنين ٠١ شوال سنة ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠/٠٨/١١م ، الناس يعبرون الشوارع ، يهرعون هنا وهناك قبل أن يحصروا بمنطقة التفتيش ، لقد بدأ إقفال الطريق المؤدية إلى ذلك الحي الهادىء من أحياء مدينة حلب ، حي المشارقة الـــذي لم تُبق منه يد المدنية الحديثة إلاّ القليل ، المتراصة أبنيته ، شوارعه الضيقة التقليدية المرصوفة بالحجارة توحي إليك أنـــك تسير بأزقة التاريخ ، وأهله الذين ما برحوا يحتفظون بصفاء وسذاجة طباعهم وعاداتهم ، لقد أقفلت الطرق المؤدية إليه بتلك الأحذية الثقيلة ، الصمت خيم والهدوء يعم أزقة ذلك الحي من التاريخ حتى أصوات أطفال العيـــد وئـــدت .. وئدت .. مُنع التجول ، منع الدخول والخروج وأحكم إغلاق الحيّ وبدأ التفتيش وبدأت الأحذية تركـــل الأبـــواب مكسرة الأقفال ، تهتك حرمة العزل ، تجأر كخوار الثور الجريح ، تزبد وتربد ، تهدد وتتوعد ، ويزداد الجنون مع كل

جواب من الأهل أن لم نر أو نسمع بأحد مرّ من هنا ، لم نلمح أحداً لم نسمع أصوات قتال .. وعبثاً يبحثون عـــن الثوار ، وهنا يفقد الرائد (بالوحدات الخاصة) صوابه لا بد أنهم هنا يصيح بأعلى صوته .. بـــل إنّ هـــؤلاء الحقـــراء (الشعب) هم يتسترون عليهم ومتأخراً يستنتج أنهم الشعب نفسه ، فما كان منه إلاّ أن حشر فنادى : أنْ عليَّ بكل شاب ترونه ، وبسرعة أُخرج جميع من كان بالحي من الشباب بتلك اللحظة وكانوا ستة وثمانين شاباً سيقوا بنظـــام منظم إلى قرب مقبرة هنانو المجاورة للحي وهناك أشبعوا ركلاً وضرباً وإهانة ثم أمروا بالسير إلى الملعب البلدي ســـيراً برتل أحادي وأجبروا على الركض بمحيطه دورة كاملة ثم مضت دقائق اختلى فيها المجرم الرائد إلى أترابه من تلاميـــذ فرعون و .. قرّ قرارهم ، نعم كان قراراً حاسماً ، أمر الجميع بالعودة إلى المقبرة وهناك أوقفوا إلى جدارها الجنوبي على رجل واحدة والأيدي مرفوعة ومن خلفهم حفنة من جنود الطاغية التي لا تعرف لله حدودا .. الذين قست قلوبهم .. ألا ساء ما يفعلون ..

واعتلت سطوح المنازل نساء الحي والأطفال كل يراقب ابنه أو زوجه أو أخاه وذلك ينظر أباه أو عمه والوجـــوم يرتسم على الجباه ، ما الخبر ، ماذا سيحدث .. الأبصار شاخصة ، القلوب وجلى .. وفجأة صاح المجرم : نار .. نار .. نار ومع الصوت انهالت الطلقات على أولئك الشباب العزل الذين تعالت صيحاتهم الله أكبر .. الله أكـــبر .. الله أكبر .. وما هي إلاّ ثوان حتى صرع فيها ستة وثمانون جسداً طاهراً أرضاً ، يسقونها بدمائهم الزكية الطاهرة ، ثم تابع المجرم الوغد أمر زبانيته بأن تفرغ طلقة في رأس كل شهيد من هؤلاء الشهداء الذين خرجوا لتوهم من شهر هو أفضل الأشهر عند الله ذلك كان الأول من عيد الفطر ٠١ شوال ١٤٠٠هـ وبذلك انتهت مسرحية مذبحة المشارقة

نعم يا إخوتي هذه كانت أيام الفطر السعيد بحلب لهذا العام ، عيد انقلبت فيه دمى الأطفال إلى أجساد آبـــائهم وإخوانهم أمام أبصارهم يذبحون على أيدي الحاكم الطاغي سفاك سوريا ، المجرم الأسد لكن .. ﴿ ... **أَلا إِنَّ نَـــصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤]

﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٢]

حلب ١٩٨٠/٠٧/٣٠م

أبو أســـامة